

الوضع على نفاذ الحديث

للدكتور أحمد محمد نور سيف

عرف مصطلح « الوضع » عند المحدثين لنوع من الاحاديث التي نسبت الى النبي صلى الله عليه وسلم ، واثبتت معايير النقد التي اصطاح عليها نقاد الحديث انها محتلفة ومزورة .

ويكاد المؤرخون لعلوم المصطلح ومادة تدوين الحديث ، يتفقون على أن بواذر هذه الظاهرة قد بدأت مع حدوث الانشقاق في صفوف الأمة الاسلامية ، وتصدع وحدتها ، حيث لم تجد عوامل الفرقة التربة الصالحة لها في الصدر الأول الذي كانت تهيمن عليه النخبة المصطفوية التي لازمت النبي صلى الله عليه وسلم وتأثرت به تأثراً شديداً ، وانطبعت بتعاليمه وانصهرت في بوتقة الايمان الصادق والاخلاص المتفاني الذي يقدم النفس والمال في سبيل ما آمن به وصدق .

لكن حين اتسعت رقعة الاسلام ، استتبع ذلك دخول عناصر جديدة ومن بينها عناصر موتورة في زعاماتها متهورة في امتيازاتها متعلقة بموروثاتها تتحين الفرص وتعمل في الخفاء لزلزلة هذا الكيان الطارئ ، لتعود إلى سابق مجدها وعزها .

وإلى جانب هؤلاء عناصر في الداخل لما يتمكن الايمان من قلوبها ولم تع مبادئه ومسئولياتها تجاهه ، فانساقبت خلف تلك تسيرها وتحقق بها اهدافها وغاياتها .

وكان لنشاط عبد الله بن سبأ اليهودي واذنابه اثره الكبير ومداه الواسع في تحريك الفتنة في الامصار المختلفة واجتذاب هذه العناصر التي ما كادت تجد فرصتها المواتية في عهد عثمان رضي الله عنه حتى انقضت على معقل الخلافة وأودت بالخليفة الثالث رضي الله عنه .

وحين تحقق لها ذلك بدأت جولة اخرى لتضييع معالم الجريمة فألهمت النار بين على ومعاوية رضى الله عنهما وعملت على تفرقة الكلمة وأصطناع الخلافات واثارة النزعات بين القبائل حتى لا يلتئم الشمل وتتحدا الكلمة ، فتمتد إليها يد العدالة بالقصاص .

وتولد من ذلك الصدام والصراع ، انشقاق في الصفوف وتفرق في الكلمة وتصدع في الوحدة واتجاهات في التفكير تولدت منها فرق مختلفة من شيعة وخوارج وناصبية تنادى كل منها بمفاهيم خاصة تراها أصلا من اصول الدين ، لا يتحقق الايمان الا بها ، وهى وان بدت كل منها تنادى بفكرة دينية معينة الا ان النزعات السياسية والاغراض الشخصية ، كانت هى المحرك الحقيقى لها لكنها كانت ترى أن عامل القوة والظهور لابد ان يركز على مبادئ دينية تعطىها الصبغة الشرعية وتكسبها الانصار والمؤيدين .

لذا رأت انه لابد من ربط تلك المبادئ بمصدر الوحي الذى يدعى له الناس ويتقبلون تعاليمه ، في الوقت الذى ترى الحرص الشديد على السنة النبوية بين افراد الامة على كل مستوياتها تتحكم في حياتهم وكل صلاتهم وأحوالهم .
وحين لم تجد في الاحاديث النبوية بغيتها وما يؤيد مطلبها المعوج اتجهت الى استخدام هذا السلاح بالكذب والاختلاق ، فاصطنعت احاديث تبرر نحلته وتعطىها الصبغة الشرعية بنسبتها الى النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان لصلة الامة الاسلامية بالفلسفات الهندية واليونانية والفارسية وما فيها من مخلفات فاسدة ، أثر في ظهور المذاهب الكلامية من قدرية ومرجئة ومعتزلة ، والى جانب هؤلاء بقايا الدول الزائلة والديانات المغلوبة فظهر من هؤلاء مزيج من الزنادقة والشعوبيين الحاقدين .

وسلك هؤلاء مسلك اولئك في وضع الاحاديث ونسبتها الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فوضع المبتدعة ما يؤيدهم ويطعن الى مخالفهم ، وألف الزنادقة ما يطعن في الدين أو يشكك فيه .

والى جانب هؤلاء فئة اخرى من ضعاف النفوس رأت في مكانة الحديث

والمحدثين منزلة مرموقة في المجتمع تحتل التبجيل والحب والتعظيم من الناس فأرادت محاكاتهم والتمتع بتلك الاختصاصات ، اما لكسب مادی أو كسب معنوی .
أ - الكسب المادی : ويمثل هذه الفئة ، القصاص المتكسبون والمتمالقون لاصحاب المراكز وذوى الهيئات .

ب - الكسب المعنوی : ويمثل الفئة هذه المتطفلون على علم الحديث الراغبون في تلك المنزلة التي يتمتع بها المحدثون من الاقبال والاحترام (١) .

والمتابع لكتب النقد واحوال الرجال ، يرى ان هذا النوع الاخير قد لاقى النقاد منه عنتا ومشقة ، لم يلاقوه من الاصناف الاخرى ، اذ ان التهمة الملازمة لأولئك وعدم معرفتهم بطلب الحديث سريعا ما تكشف عن نواياهم ومآربهم بخلاف هؤلاء الذين تفتنوا في التضييل واخفاء حقيقة ما يروون ، فلا يدرك النقاد تلبساتهم - في الغالب - الا بعد عناء ومشقة وطول مراس اكتسابه من التعامل مع هذا الصنف من الرواة ، ويقع على عاتق هؤلاء - فيما يبدو - تبعات هذا النوع الذي جعلته موضوعا لهذا البحث . الى جانب فريق آخر أطارت العصبية بصوابهم فصاروا ينهجون منهج هؤلاء في تحقيق غاياتهم بالانتقام من مخالفينهم والانتصار لموافقيهم .

لقد كانت ميادين الوضع السابقة وغاياته ، ترمى الى الانتصار بالحديث النبوی في تحقيق تلك الغايات ، ولكن النقاد ضربوا سياجا قويا من القواعد والشروط في نقد الاحاديث وتقبلها ، فلم يدعوا شاردة ولا واردة الا ووضعوها لها من الضوابط ما يحددها ويقومها ، ووسعوا بذلك دائرة النقد ، واحتوت علوم الحديث كل ما يتطرق الى الراوى والمروى وما يتصل بهما من قريب أو بعيد .

ولم يسلم من نقدهم الجراح وطعنهم الشديد من حامت حوله الشكوك ولم يلتزم في تعاطيه هذه المهمة بتلك القواعد ، حتى لقد شمل نقدهم بعض النقاد ومن عرف في الوسط العلمی بالحفظ والتبريز (٢) .

١ - انظر السنة ومكانتها في التشريع الاسلامی ٨٧ .

٢ - انظر ترجمة الشاذكوني الميزان ٢ - ٢٠٥ ، ابراهيم بن ابي يحيى : الميزان ١ - ٦ ، الواقدي :

الميزان ٣ - ٦٢٢

وولد هذا الموقف الصارم من النقاد كراهية وضغينة من الموتورين بالطعن عليهم في مروياتهم واهدار عدالتهم الى جانب آخرين اعتمدتهم العصبية لمذهب او فكرة فاندفع هؤلاء وأولئك للنيل من جارحيهم أو مخالفينهم ، وكان للخلاف الشديد بين اهل الرأي وأهل الحديث وبين الفئات الاخرى اثره الواضح في الكيد والانتقام ، وليس هناك من سبيل للوصول الى هذه الغاية إلا باستعمال سلاح النقد للطعن والتجريح .

وهنا يمكن ان نتساءل : هل كان هناك وضع على ألسنة النقاد والمحدثين ؟

ان ميدان الوضع في ميادين السابقة ، كان يعتمد على اختلاق الاحاديث ونسبتها الى النبي صلى الله عليه وسلم . لما للسنة من مكانة في النفوس تحتم الاذعان والقبول . وحين مارس الحديث هذا الفريق من النقاد واكتسبوا بالتالي ثقة الناس وقبولهم ، واصبحت اقوالهم تتمتع ايضا بالقبول والاذعان . وجد الوضع في نقدهم سلاحا جديدا يمكن استخدامه لاغراضهم . ووضعوا على ألسنة النقاد ما يطعنون به على نقاد آخرين أو على مخالفينهم . وان لم يصدق على هذا ما تعارف عليه النقاد في مسمى (الوضع) ولم يتناوله مسمى (الوضعاين) .

قال الذهبي : قال الازدي : كان نعيم بن حماد ممن يضع الحديث في تقوية السنة ، وحكايات مزورة في ثابت النعمان كلها كذب (١) .
والمعروف عن نعيم بن حماد ، صلابته في اهل الرأي . وقد انكر ابن حجر هذا النص لما عرف من عدالته وصدقه (٢) .

وسواء صح هذا النقل عنه ام لم يصح ، فهناك طعن مختلف وجرح موجه إن لم يصدق على نعيم صدق على مخالفيه وهذا هو موضوع البحث .
لقد كانت العراق بصفة عامة والكوفة والبصرة بصفة خاصة مهدا لذلك التناحر ، وكانت بغداد بالذات ملتقى لكل تلك الجبهات المتعادية وشهدت فترات متعاقبة من انتصار فئة على اخرى ، ولذا كان نصيبها من مخلفات هذا التناحر كبيرا .

١ - الميزان ٤ - ٢٦٩ ، تهذيب التهذيب ١٠-٤٦٣ وانظر الكامل ٣-١٧٢

٢ - تهذيب التهذيب ١٠-٤٦٣

يمثله الرصيد الذي خلفته في مختلف كتب التاريخ والنقد .
وسأحاول في هذا البحث ايراد نماذج مختلفة توضح هذه القضية من جهة وتبرز
ابعادها من جهة اخرى واثرها في جرح الرواة أو تعديلهم . وسأورد هذه النماذج
من تراجم نقاد ومحدثين وفقهاء حتى يتيح التنوع ابراز الفكرة في صورة اوضح .

أولاً : من رجال النقد والحديث على بن المديني والنقد الموجه اليه

احد الأربعة الذين كانوا يشار اليهم بالبنان في ميدان النقد وعلوم الحديث يقول
ابو عبيد القاسم بن سلام : انتهى العلم الى اربعة فذكرهم ثم قال : وعلى بن المديني
اعلمهم به (١) . وسئل ابو داود : على أعلم أم احمد ؟ قال : على اعلم باختلاف
الحديث من أحمد (٢) . وكان البخاري يجلّه ويعظمه فقد تتلمذ عليه كما تتلمذ
على يحيى بن معين واحمد بن حنبل والمشيخة المعاصرة لهم ومع ذلك يقول ما
استصغرت نفسي عند احد الا عند على بن المديني (٣) .

ويقول سفيان بن عيينة - وهو شيخه - : يلومونني على حب على والله لقد
كنت اتعلم منه اكثر مما يتعلم مني (٤) ويصفه وصف اعجاب واكبار فيقول :
على بن المديني حية الوادي (٥) .

وقد قدر لعل بن المديني كما قدر لغيره من علماء الحديث ان يصطلي بنار فتنة
خلق القرآن ، التي اثارها المعتزلة واغروا المأمون ومن بعده بالانتصار لها وحمل
الناس عليها بالقوة والقهر . وتعرض العلماء من المحدثين وغيرهم للامتحان والتعذيب
وتباينت مواقفهم بحسب احوالهم وظروفهم فاضطر البعض للاستجابة تحت التهديد
بالقتل او التعرض للتعذيب والارهاب وصمدت قلة منهم غير مكترثة بتهديد
أو وعيد (٦) .

١ - تاريخ بغداد ١١-٤٦٥ ٢ - تاريخ بغداد ١١-٤٦٦

٣ - تاريخ بغداد ١١-٤٦٣ ٤ - تاريخ بغداد ١١-٤٥٩

٥ - تاريخ بغداد ١١-٤٥٩

٦ - انظر تاريخ الطبري ٨-٦٣٤ وما بعدها . طبقات الشافعية ٢-٤٤ .

وقد اضطر على بن المديني ان يستجيب لما طلب منه مكرها ، قال علي بن الحسين ابن الوليد : حين ودعت علي بن عبد الله بن جعفر قال : بلغ اصحابنا غنى ان القوم كفار ضلال ولم اجد بدا من متابعتهم ، لاني جلست في بيت مظلم ثمانية اشهر وفي رجلى قيد ثمانية أمانان حتى خفت على بصرى ، فان قالوا : يأخذ منهم فقد سبت الى ذلك ، فقد اخذ من هو خير مني (١) .

وقال لابن عمار : ما في قلبي مما قلت وأجبت اليه شئ ، ولكني خفت ان اقتل ، قال : وتعلم ضعفى ، لو ضربت سوطا واحدا ملت (٢) .

وقال محمد بن عثمان بن ابي شيبة : سمعت عليا على المنبر يقول : من زعم ان القرآن مخلوق فهو كافر (٣) .

وقد علم اقرانه وتلاميذه عذره في استجابته لهم فعذروه ، قال ابن الجنيدي : سمعت يحيى بن معين - وذكر عنده علي بن المديني فحملوا عليه - فقلت ليحيى : يا ابا زكريا ، ما على عند الناس الا مرتد ، فقال : ما هو بمرتد ، هو على اسلامه ، رجل خاف فقال . ما عليه ! ! (٤) .

وقال محمد بن عبد الله النيسابوري : سمعت ابا عبد الله ، محمد بن يعقوب الحافظ يذكر فضل علي بن المديني وتقدمه وتبحره في هذا العلم ، فقال له بعض اصحابنا : قد تكلم فيه عمرو بن علي (٥) . فقال : والله لو وجدت قوة لخرجت الى البصرة فبليت على قبر عمرو بن علي (٦) .

فكان موقف علي من هذه الفتنة انه استجاب خوفا وخشية وتردد على ابن ابي دؤاد دفعا لشره وعن غير واحد من اهل الموصل من أجليه (٧) .

وبهذا التمس الذهبي العذر له في تلك الاستجابة فقال : مناقب هذا الامام جمعة ، لولا ما كدرها بتعلقه بشئ من مسألة القرآن وتردده على احمد بن أي دؤاد

١ - ٢ - ٣ - تاريخ بغداد ١١-٤٧١

٤ - تاريخ بغداد ١١-٤٧٢

٥ - أبو حفص الفلاس الثقة الحافظ . تقريب التهذيب ٢-٧٥

٦ - تاريخ بغداد ١١-٤٧٢

٧ - تاريخ بغداد ١١ - ٤٧١

الا انه تنصل وندم وكفّر من يقول بخلق القرآن (١) .

ومن النصوص السابقة تتضح جوانب القضية وحقيقة موقف علي منها ومع ذلك فقد وجد الحاقدون عليه فرصة للنيل منه والظعن عليه اورد الخطيب كثيرا من الظعن عليه دون نقد أو تحرّ لما ينقل ، بل اثبت كل ما وقع عليه من ضعفاء أو مجاهيل أو متهمين ، وسأورد نماذج منها تدل على مدى ما فيها من تحامل وظعن يني عن حقد وروح انتقام .

قال محمد بن عبد الله بن ابراهيم الشافعي : كان عند ابراهيم الحربي قمطر من حديث علي بن المديني ، ما كان يحدث به ، ف قيل له : لم لا تحدث عنه ؟ قال : لقيته يوما ويده نعله وثيابه في فمه ، فقلت : الى أين ؟ فقال : ألحق الصلاة خلف ابي عبد الله فظننت انه يعني احمد بن حنبل . فقات : من ابو عبد الله ؟ قال : ابو عبد الله ابن ابي دؤاد . فقلت : والله لاحدثت عنك بحرف (٢) .

ويبدو ما في هذا النص من اسفاف وتجن على الواقع ، فيجعل من هذا الامام معتوها يجرى في شوارع بغداد ، نعله في يده وثيابه في فمه . وباقي القصة يدل على ما فيها من تعمل مقصود غايته الظعن والتشنيع .

ويورد الخطيب هذه القصة من طريق شيخه علي بن احمد الرزاز وقد ضعفه وذكر أن ابنه أدخل عليه في حديثه ما لم يسمعه . (٣)

كما يورد نصين آخرين من طريق عبيد الله بن محمد العكبري = ابن بطة (٤) . عن ابراهيم بن اسحاق الحربي قيل له : أ كان علي بن المديني يتهم بشيء من الكذب ؟ قال : لا . انما كان حدث بحديث فزاد في خبره كلمة ليرضى بها ابن ابي دؤاد (٥) .

١ - تذكرة الحفاظ ٤٢٨

٢ - تاريخ بغداد ١١-٤٧٠

٣ - أنظر ترجمته ١١-٣٣٠

٤ - نقل الخطيب عن أبي القاسم الأزهرى قوله فيه ضعيف ضعيف ليس بحجة . كان يثبت سماعه على كتب لم يسمعا .

٥ - تاريخ بغداد ١١-٤٧٠

وهل كان الكذب والتقول غير هذا يا ترى ؟ وهل آل الامر بهذا الامام الذى كان ملء السمع والبصر ، وجعلته الامة حجة بينها وبين الله في نقل سنة نبيها صلى الله عليه وسلم وتعديل رجالها وتجريحهم الى ان يتناول المغرضون فيعرضه طعنا وتجريحا ؟ .

أما النص الثاني ففيه ، سئل ابراهيم فقيه له : كان يتكلم على بن المدينى في احمد ابن حنبل ؟ فقال : لا . انما كان اذا رأى في كتابه حديثا عن احمد قال : اضرب على هذا ، ليرضى به ابن ابي دؤاد ، وكان قد سمع من احمد ، وكان في كتابه سمعت احمد وقال احمد وحدثنا احمد . وكان ابن ابي دؤاد اذا رأى في كتابه حديثا عن الاصمعي ، قال : اضرب على ذا ، ليرضى نفسه بذلك (١) .

وهكذا يكون الافك والبهتان . والا فمن ذا الذى يتصور أن ابن المدينى الذى يأبى عليه دينه ان يجامل اقرب واحب الناس اليه وهو ابوه حين يسأل عنه يطرق ويقول : ابي ضعيف (٢) . يأمر بالضرب على حديث احمد بن حنبل . وهذا النص من طريق العكبرى ايضا .

وهناك نص آخر ينسب الى يحيى بن سعيد القطان يقول فيه لعلى بن المدينى : ويحك يا على اني اراك تتبع الحديث تتبعنا ، لا احسبك تموت حتى تبلى (٣) .

ومتى كان تتبع الحديث ونقده وتنقيته من كل دخيل وتصفيته من كل شائبة ماله الابتلاء الذى يتعرض بسببه للتهمة والطعن في دينه ؟

وكيف ينكر يحيى بن سعيد القطان امرا نذر هو حياته له ، وله في شيوخه وشيوخهم اسوة في التحرى والبحث والتنقيح ؟ وهو يرى في مالك حذرا اشد واحتياطا أعنف حتى بلغ في ذلك الغاية فقيه : ما اشد انتقاء مالك للرجال ! (٤) وقال الشافعى : كان مالك اذا شك في الحديث طرحه كله (٥) . وقال ابن ابي حاتم : قلت ليحيى ابن معين : ما لك قل حديثه ؟ فقال : بكثرة تمييزه (٦) .

ونص آخر نسب الى الاصمعي يقول فيه : والله لتتركن الاسلام وراء ظهرك (٧)

٥ - ترتيب المدارك ١-١٨٩

١ - تاريخ بغداد ١١-٤٧٠

٦ - ترتيب المدارك ١-١٨٥

٢ - الميزان ٢-٤٠١

٧ - تاريخ بغداد ١١-٤٦٥

٣ - تاريخ بغداد ١١-٤٦٥

٤ - تهذيب التهذيب ١٠-٦١

هكذا دون مبررات ودلائل تعتمد عليها هذه النبوة ويبلغ الاسفاف غايته في الحلف بالله على امر مغيب ، لا يجازف به جاهل فضلا عن عالم . وبماذا ؟ بالخروج من الاسلام .

وهكذا يورد الخطيب رحمه الله هذه الاباطيل ويحشدها في كتابه في سيرة هؤلاء الاعلام دون تعقب أو تفنيد ولم يتعقب في ترجمة ابن المديني الا نصا فيه كذب ظاهر مبن مهيّن وفيه انه طعن في حديث الرؤية ليرضى ابن ابي داود ، نظير هبات وعطايا اغدقها عليه فلم يجد بدا من التعليق عليه بقوله : وما حكى عن علي بن المديني في هذا الخبر من ان قيس بن ابي حازم ، لا يعمل بما يرويه ، لكونه اعرابيا بوالا على عقبيه فهو باطل ، وقد نزه الله عليا عن قول ذلك ، لأن أهل الاثر — وفيهم علي — مجمعون على الاحتجاج برواية قيس بن ابي حازم وتصحيحها اذ كان من كهراء تابعي اهل الكوفة ، ولم يحك احد ممن ساق خبر محنة ابي عبد الله احمد بن حنبل ، انه نوظر في حديث الرؤية ١ هـ (١) .

ومع ذلك لم يعرج الخطيب على نقد سند القصة ، مع ان فيها محمد بن عمران ابن عبد الله المرزباني ، وهو قال عنه في ترجمته : اكثر كتبه لم تكن سماعاه ، وكان يرويها ويقول : اخبرنا ، ولا يبينها . قال الازهرى : كان معتزليا وما كان ثقة واتهمه غيره (٢) .

ثانيا : في المحدثين والفقهاء من اهل الرأى

والنقد الموجه اليهم

لم يسلم ابو حنيفة النعمان رحمه الله من الطعن عليه في مسألة خلق القرآن وان لم يصح ذلك عنه كما قال احمد بن حنبل (٣) .

وهناك نواح ثلاث طعن عليه فيها وهى :

- القول بالتجهّم .
- القول بالارجاء .
- الرأى . وهو ما عرف به واشتهر ، وكاد يستحوذ على مدلول هذه الكلمة

١ - تاريخ بغداد ١١-٤٦٧

٢ - تاريخ بغداد ٣-١٣٦

٣ - تاريخ بغداد ١٢-٢٧٧

التي عرفت بها مدرسته .

اما التهمة بالتجهم فقد نسبت اليه زورا وبهتانا ولفقت نصوص اريد منها الطعن عليه بهذه البدعة .

قال ابو الاخنس الكناني : رأيت أبا حنيفة أو حدثني الثقة أنه رأى أبا حنيفة آخذ بزمام بعير مولاة للجهم قدمت خراسان (١) .

وفي سنده الحسن بن الحسين بن العباس النعالي ، قال الخطيب عنه : افسد امره بان الحق لنفسه السماع في اشياء لم تكن سماعه (٢) .

قيل لابي يوسف : أكان ابو حنيفة مرجئا ؟ قال : نعم . قلت : أكان جهميا ؟ قال : نعم . قالت : فاين انت منه ؟ قال : انما كان ابو حنيفة مدرسا فما كان من قوله حسنا قبلناه وما كان قبيحا تركناه (٣) .

وفي سنده عبد الله بن جعفر بن درستويه قال عنه البرقاني : ضعفه (٤) . ومن يعلم صالة ابي يوسف الوثيقة بشيخه يعلم كذب هذه القصة . كما ترددها النصوص الآتية : —

قال بشر بن الوليد : سمعت ابا يوسف يقول : قال ابو حنيفة : صنفان من شر الناس بخراسان الجهمية والمشبهة . وقال ابن الحماني عن ابيه : سمعت أبا حنيفة يقول : جهم بن صفوان كافر .

قال الخطيب : وليس عندنا شك في ان ابا حنيفة يخالف المعتزلة في الوعيد لانه مرجئ وفي خلق الافعال ، لانه يثبت القدر (٥) .

وأما التهمة بالارجاء : فلم يكن موقفه واضحا في اذهان مناوئيه تمام الوضوح ولذا انساق الكثير في اتهامه به . وان كان في حقيقته لا يعدو مذهباً مسلماً به في نظر المنصفين .

١ - تاريخ بغداد ١٣-٢٧٦

٢ - تاريخ بغداد ٧-٣٠٠

٣ - تاريخ بغداد ١٣-٢٧٥

٤ - تاريخ بغداد ٩-٤٢٩

٥ - تاريخ بغداد ١٣-٢٧٦

قال ابو الصلت : لم يكن ارجاؤهم هذا المذهب الخبيث ، ان الايمان قول بلا عمل ، وأن ترك العمل لا يضر بالايمان ، بل كان ارجاؤهم انهم كانوا يرجون لأهل الكبائر الغفران ردا على الخوارج وغيرهم الذين يكفرون الناس بالذنوب فكانوا يرجون ولا يكفرون بالذنوب ونحن كذلك . (١)

ولذا قال الذهبي : الإرجاء مذهب لعدة من جلة العلماء ، لا ينبغي التحامل على قائله . (٢)

وفي هذا المقام تطوع المفترون بنصوص ايضا للطعن أورد منها النصين التاليين :
قال حبيب كاتب مالك بن انس عن مالك قال : كانت فتنة ابي حنيفة اضر على هذه الأمة من فتنة ابليس في الوجهين جميعا في الارعاء وما وضع من نقض السنن (٣) .

وحبيب هذا متهم قال ابو داود عنه : من اكذب الناس (٤) .
قال الحميدى : حدثنا حمزة بن الحارث بن عمير عن ابيه قال : سمعت رجلا يسأل أبا حنيفة في المسجد الحرام عن رجل قال : اشهد ان الكعبة حق ولكن لا أدري هي هذه التي بمكة أم لا . فقال : مؤمن حقا . وسأله رجل قال : اشهد أن محمد بن عبد الله نبي ولكن لا أدري . هو الذي قبره بالمدينة أم لا . فقال : مؤمن حقا قال الحميدى : ومن قال هذا ، فقد كفر (٥) .
والحارث بن عمير قال عنه الذهبي : ما اراه الا بين الضعف ، وقال ابن حبان والحاكم : روى احاديث موضوعة . (٦)

وأما الطعن عليه بالرأى : فان الرأى لا ينفك عنه محدث أو فقيه لكن قد يغلب على فئة دون اخرى فيستحوذ التمسك بظاهر النصوص على فئة ، وتزواج فئة بينه وبين الايغال في الرأى على درجات متفاوتة ، لكنها لا تغفل الحديث اذ هو

١ - تاريخ بغداد ٦-١٠٩

٢ - الميزان ٤-٩٩٩

٣ - تاريخ بغداد ١٣-٣٩٦

٤ - تهذيب التهذيب ٢ - ١٨١

٥ - تاريخ بغداد ١٣-٣٧٠

٦ - الميزان ١-٤٤٠

مدار هذا الاجتهاد والاستنباط ولذا عرف فريق من العلماء بالحديث لغلبة تعاطيهم ذلك وعرف فريق آخر بالرأى لغلبة ذلك عليهم ، ولذا نجدها مقادير متفاوتة في علماء الأمة وأئمتها كما في ابي حنيفة ومالك والشافعي واحمد والبخارى والترمذى وابي ثور وغيرهم من أقرانهم وشيوخهم وتلاميذهم .

قال موسى بن عبد الله بن يحيى بن خاقان : قال لى عمى : سألت أبا عبد الله احمد ابن حنبل عن المعروف بابي ثور ؟ فقال : ما بلغنى عنه الا خير ، الا أنه لا يعجبني الكلام الذى يصيرونه في كتبهم (١) .

وقال احمد بن خالد البراثي : كنت عند احمد بن حنبل فسأله رجل عن مسألة في الحلال والحرام ؟ فقال له احمد : سل عافاك الله غيرنا . قال : انما نريد جوابك يا أبا عبد الله فقال : سل عافاك الله غيرنا ، سل الفقهاء ، سل أبا ثور (٢) .

ولشاك ان يقول : ان هذا مستبعد ، ولعله موضوع عليه ، وهذا لا يغير من جوهر القضية التى نحن بصدددها ، ان لم يصف اليها دليلا اخر يؤكددها لكن هذا الموقف من احمد رحمه الله ، ليس بمستبعد ، فله فيمن قبله من السلف الصالح اسوة في كراهة الفتيا والاحجام عنها ، والتقلل منها (٣) .

قال ابو حاتم : هو رجل يتكلم بالرأى فيخطئ ويصيب ، وليس محله محل المتسعين في الحديث (٤) .

قال الذهبي : هذا غلو من ابي حاتم سماحه الله ، وقد سمع ابو ثور من سفيان وتفقه بالشافعي وغيره ، وقد روى عن احمد بن حنبل انه قال : هو عندى في مسلاخ سفيان (٥) .

قال السبكي : هذا غلو من ابي حاتم ، وليس الكلام في الرأى موجبا للقدح فلا الثفات الى قول ابي حاتم هذا (٦) .

١ - تاريخ بغداد ٦٦-٦٧

٢ - تاريخ بغداد ٦٦-٦٧

٣ - أنظر اقوال الصحابة والتابعين فى ذلك : جامع بيان العلم ١-٢٧٧

٤ - الجرح والتعديل ١-٩٨

٥ - الميزان ١-٢٩

٦ - طبقات الشافعية ٢-٧٥

وجاء في ترجمة محمد بن عبد الله بن المثنى الانصارى ، قال احمد ما كان يضع الانصارى عند اصحاب الحديث الا النظر في رأى وأما السمع ، فقد سمع .
وقال ابو زكريا الساجي : رجل جليل عالم لم يكن عندهم من فرسان الحديث مثل يحيى القطان ونظرائه ، غلب عليه الرأى .
قال : وحدثت عن يحيى بن معين قال : كان محمد بن عبد الله الانصارى يليق بالقضاء ، ف قيل له : يا ابا زكريا . فالحديث ؟ فقال :

للحرب اقوام لها خلقوا وللدواوين كتاب وحساب

وقال الغلابي عن يحيى : الانصارى ثقه (١) .
ومما سبق يتضح ان الرأى بمعنى التفقه واعمال الفكر لاستنباط الاحكام الشرعية ، أمر متفق عليه ، بل ضرورة من ضرورات الدين ، لكن ان جنح المجتهد الى المرجوح عن الراجح في نظر غيره أو أعمال القياس عند عدم وقوفه على النص أو وقف عليه ولم يثبت عنده وعارض قاعدة شرعية عنده الى غير ذلك من مسالك الاجتهاد المختلفة ، فقد بذل وسعه ولا يخرج عن دائرة المجتهد المصيب أو المخطئ .
ولا يبرر ذلك ان يبالغ في الانكار ، ويتجاوز الانكار الى التهجم والظعن في الدين والاخراج من حظيرة المسلمين .

ولا يستبعد وجود نصوص من الأئمة فيها شئ من الانكار والجرح وان كان الجرح لا يقبل الا لما يخضع لقواعده ويساير منهجه ، الا أن التغالى وحب الانتصار قد حمل البعض على القول على السنة النقاد إما بالقدح للمخالفين أو المدح للموافقين .
قال يوسف بن اسباط : قال ابو حنيفة : لو أدر كفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وادركته ، لآخذ بكثير من قولى . (٢)

ولا يصدر هذا القول من مسلم لكن التعصب الأعمى وحب الانتقام هو الذى يدفع الى هذا الافك والبهتان (٣) .

١ - تاريخ بغداد ٥-٤١٠

٢ - تاريخ بغداد ١٣-٣٨٧ . الكامل ٣-١٦٩ ب

٣ - انظر التعليق على النص فى المرجع السابق .

وقال اسحاق بن ابراهيم الحنيني قال مالك : ما ولد في الاسلام مولود أضر على الاسلام من ابي حنيفة (١) .

واسحاق بن ابراهيم عن مالك وغيره قال الذهبي : صاحب اوابد ، قال النسائي ليس بثقة (٢) .

وقال ابو نعيم ، الفضل بن دكين : سمعت أبا حنيفة يقول لأبي يوسف : ويحكمكم كم تكذبون على في هذه الكتب ما لم اقل (٣) .

وهذا النص قد عبث به ليطعن به على ابي يوسف ، فقد جاء في كتاب التاريخ ليحيى بن معين هذا النص وفيه قال ابو الفضل الدوري : سمعت أبا نعيم يقول : سمعت زفر يقول : كنا نختلف الى ابي حنيفة ومعنا ابو يوسف ومحمد بن الحسن ، فكنا نكتب عنه قال زفر : فقال ابو حنيفة يوما لأبي يوسف ويحك يا يعقوب ، لا تكتب كل ما تسمع مني فاني قد أرى الرأي اليوم واتركه غدا ، وأرى الرأي غدا واتركه بعد غد (٤) .

فحرف النص ليقال ان ابا حنيفة نفسه يطعن في ابي يوسف ، وهو افتراء وعبث مكشوف . كما ان في سند الرواية السابقة على بن عمر السكري وقد أضر ، فادخل عليه بعض الطلبة شيئا لم يكن فيه سماعه . (٥)

وفي هذا لون من اساليب الوضاع ، فتارة يختلقون النصوص ، وتارة يعمدون الى نصوص فيحرفونها امعانا في التضليل .

وهكذا شمل هذا النوع من الوضع ما يختلقه الوضاع على ألسنة النقاد للطعن في الآخرين بدافع الانتقام أو العصبية . تارة بالقدح في مخالفاتهم وتارة بالانتصار لأئمتهم واتباعهم ، كما تنوعت اساليبهم باختلاق النصوص أو تحريفها أو باللجوء الى

١ - تاريخ بغداد ١٣-٣٩٩

٢ - تاريخ بغداد ١-١٧٩

٣ - تاريخ بغداد ١٣-٢٥٨

٤ - التاريخ النص رقم ٢٤٦١ وانظر تاريخ بغداد ١٣-٤٠٢

٥ - تاريخ بغداد ١٢-٤١

المنامات المختلفة (١) .

- ويمكن ان نجمل المقاصد التي سعى اليها وضاع النقد في النقاط التالية : —
- التأثير من النقد في كشفهم احوال الضعفاء والمتروكين أو المتهمين بوضع الحديث .
- الانتصار لمذهب أو اعتقاد .
- التعصب لامام من الأئمة بالنيل من الآخرين أو الخط من شأنهم .
- التشفي لأغراض شخصية .

وبعد : فان هذا البحث يمكن ان يتناول في دراسة موسعة تستهدف تتبع كتب النقد والمناقب والتاريخ ، للتعرف على ما فيها من مدح أو قدح مصطنع أو مبالغ فيه ولا شك أن هذه الدراسة ستكشف جوانب من تلك الانحرافات في معايير النقد وتبرز الأساليب التي تسيء الى تراث الأمة ، وتقف عقبه في الوصول الى الغاية التي ينشدها المنصف في بحثه عن الحقيقة ، فان لذلك آثاره البعيدة في تقويم الرواة وما يروون

د • احمد محمد نور سيف